

من مشاهد الإغارات المتلاحقة على غزةناهض منير الرئيسالنائب عن مدينة غزة

تكلم شأؤول موفاز وزير الحرب الإسرائيلي عن خطط يعدونها لاحتلال قطاع غزة كما احتلوا الضفة الغربية كلها. وجاء الآن دور مدينة غزة.. بعد الدمار والتخريب الهائل الذي قاموا به في رفح وخانيونس وبيت حانون وبيت لاهيا.

ومن قبيل الأعمال التمهيدية خلال الشهور القليلة الماضية اخترقت الدبابات الأمريكية الثقيلة شرق غزة (الشجاعية)، وشمالها الشرقي (الزيتون)، وشمالها الغربي (السودانية) وجنوبها الغربي (الشيخ عجلين).

في الناحية الشرقية من هذه المدينة المرابطة الواقعة بثبات على شاطئ المتوسط رغم الحروب والكوارث التي انتابتها، نسفوا أكثر من بيت لأهالي الشهداء، وقتلوا العشرات من فتيان الانفاضة، واقتلعوا مساحات واسعة من الأراضي ودمروا عشرات المصانع على الخط الشرقي الموازي لشارع صلاح الدين. وانفردوا بالاستيلاء على الشارع العام الأسفلتي في المنطقة بين معبر المنطار الذي أسموه (كارني) وبين مفرق الشهداء (البوليس الحربي قديما) الذي أسموه (نيتساريم).

وفي الناحية الجنوبية الشرقية عربت حملة الدبابات، أكثر من مرة، في شارع صلاح الدين، قادمة من المستعمرات الشرقية - إلى الخط الشرقي - فشارع القرم - إلى دوار جباليا، وعملت تخريبا في المنطقة من دوار جباليا شمالا إلى نقطة السنافور القديم جنوبا. وهي منطقة ريفية أصلا، لم يكن فيها من المنشآت قديما إلا مباني الآي بي سي (شركة نفط العراق) التي جعلتها وكالة الغوث مقر مكاتبها الرئيسية في قطاع غزة وكذا مباني محطة سكة حديد غزة. ونشأ في المنطقة على مر الأيام عدد من الورشات الصناعية ومحلات عرض السيارات وبيع قطع الغيار، وكانت مخططات التنظيم الهيكلي للمدينة ترمي إلى إقامة منطقة صناعية بديلة شرق الشجاعية، وقد بدأ العمل بها فعلا ولكن انقلاب الإسرائيليين على عملية السلام أدى إلى تجميد هذا المشروع كما جمد كل شيء آخر. وهكذا كثرت الورش نسبيا، على قدر ما يمكن أن تنمو حركة صناعية في ظل حالة كحالتنا؛ غير مستقرة؛ وغير مشجعة على الاستثمار. ومعظم عمل هذه الورش خاص بصيانة آبار المياه وغيرها من الماكينات العاملة في مصانع محلية وورش أصغر. وأصحاب هذه الورشات عموما عمال أنشأوها بمدخرات أعمارهم. وقلما استثمر في هذا الحقل متمولون كبار.

الآن عرف الرجل

جرى الاقتحام والتوغل بكيفية معينة وبأسلوب يتكرر في كل اقتحام واجتياح تقريبا، مع اختلاف بسيط في التفاصيل. داهمت الدبابات الإسرائيلية الشارع تحت وابل كثيف من نيران الدبابات التي تطلق أثناء سيرها جزافا بلا حساب وفي كل اتجاه قذائف مدفعية ورصاص رشاشات ثقيلة. وفي تلك الدفعة قامت قوات الإغارة المدرعة بتدمير جميع ورش الحدادة المزودة بمخارط على جانبي الشارع: من مفرق جباليا شمالا إلى موقع السنافور القديم. وعندما وصلت الدبابات النقطة المذكورة التي جعلوها نقطة النهاية شاهد المغيرون صورة بالحجم الطبيعي للشهيد عبد المعطي السبعوي مرسومة على جدار الطابق الثاني من بناية صغيرة على مفرق التفاح الغربي، فنسفوا البناية؛ طابقتها العلوي الذي يقع فيه النادي الذي يحمل اسم الشهيد.. وطابقتها السفلى الذي كان فيه محل لبيع الفول والفلافل ومحل آخر لتصنيع الخيام والسرادقات.. وقال لي آنذاك أحد أصحاب الورش القريبة المنسوفة، وهو شاب من آل أبو جهل: كنت أظن حينما أسمع في الأخبار عن ورشات نسفتها قوات الاحتلال، أنه لا بد أن أصحابها يستخدمونها في شيء من الأغراض التي تدعيها

الدعاية الإسرائيلية. وكنت أتوهم أن الأجهزة السرية الإسرائيلية ذات كفاءة عالية ولديها معلومات أكيدة عن كل شيء. أما الآن، فبعدما نسفوا ورشتي تأكدت أنهم يخربون ويدمرون جزافا، وأنهم لا يقصدون ما يطلقون عليه البنية التحتية للإرهاب، بل البنية التحتية للاقتصاد الوطني.

وفي مقابل اختراق المدينة من جهتها الشمالية الشرقية اخترقتها الدبابات في جانبها الجنوبي الغربي. ولا تبعد مستعمرة نيتساريم كثيرا عن مساكن الحد الجنوبي من المدينة. وهي المستعمرة التي تقيم فيها قلة من المزارعين المزيفين وجنود الجيش وعناصر المخابرات وتسيطر على الشارع الأوحد الموصل بين غزة وجنوب القطاع بعدما أغلق الإسرائيليون الشارع الثاني الذي يمر بمفرق الشهداء. ومن مستعمرة نيتساريم تخرج الدبابات نحو الشيخ عجلين شمالا أو نحو مدينة الزهراء جنوبا (وفي حى الشيخ عجلين ومقابله الشيخ رضوان وفي ثالثهما الشيخ منظر قال الشاعر الشعبي في الموالم البغدادي القديم الذي وصف معركة غزة في الحرب العالمية الأولى) : ألا شيخ عجلين فيك الطوب عثمانى - ألا شيخ رضوان فيك الدم غدراى - ألا شيخ منظر فيك الشهيد صاح وحكم - كم ظالم فى هالزمان علينا وحكم !!. وتستخدم التكتيكات ذاتها: إطلاق النار بغزارة يمينا ويسارا فيما يشبه تمشيط المنطقة حذرا من كمانان الفتيان الفلسطينيين. والقيام بنسف بعض المنازل أو قصف الأحياء بدون تمييز. وذلك كله مع وجود الإسناد الجوى بطائرات الهيلوكوبتر وفوقها طائرات الاستكشاف. والواقع أن المعركة مساهمة بين المدرعات وطائرات الهيلوكوبتر، وفق مجرى الأحوال. ويبدو أن أجهزة الرؤية الليلية من العناصر الموجودة لديهم بوفرة.

سبعة حافظون

وتتدرج عمليات التغلغل فى كل منطقة من البعيد للأقرب فى كل مرة. وفى المرة قبل الأخيرة التى أسروا فيها شابا من آل مقداد انعطفت الدبابات من شارع الرشيد الساحلى إلى الشرق فى أحشاء المنطقة الجنوبية من المدينة تاركين وراءهم مبانى وأراضى الشيخ عجلين ثم مفرق ومبانى الأمن الوقائى وتجاوزوا محطة محروقات دلول حتى صاروا فى أرض جورة الشمس التى يتواجد فيها المجمع الإسلامى ومنزل الشيخ أحمد ياسين.

أما اقتحامهم الزاوية الشمالية الغربية من غزة فسبقه تدمير ثكنة البحرية التى أنشئت بتمويل من الاتحاد الأوروبى. وكذا مركز السودانية القديم، وتقدمت - أكثر من مرة - عشرات الدبابات من المستعمرات المقطعة من أراضى بيت لاهيا إلى الجنوب على الطريق الساحلى الذى يمر بمنتجع الواحة السياحى فمنتجع النورس ثم شرقا نحو منطقة التوام ثم جنوبا نحو شارع النصر. وفى آخر مرة تجاوزت الدبابات أبراج العودة شمالا.

وأخيرا، فى الأسبوع الماضى، تغلغلت الدبابات القادمة من نيتساريم والمتقدمة على شارع صلاح الدين، حتى دخلت عمق حارة الزيتون التحتانية وعمق حارة الزيتون الفوقانية. وصارت وهى عند جامع الشمعة فى وسط مدينة غزة القديمة على بعد مئات أمتار قليلة عن الجامع العمري الكبير وكنيسة الروم الأرثوذكس.

وسبق هذه الحملة حملة أقصر مدى، قبلها بيومين اثنين، نسفت قوات العدو خلالها منزل الشهيد مسعود عياد وأخيه المناضل سعيد. وقد اعتقلت الحملة ولدى الشهيد مسعود عياد بدعوى أن أحدهما ضالع فى الإرهاب على حد قول المنشورات التى نشرتها طائرات الهيلوكوبتر فى كل مكان. وشوهدت حجارة المنزل المنسوف منتشرة على مسافة لا تقل عن سبعين مترا.

وجدير بالذكر فى صدد البيوت المنسوفة أن الأضرار لا تقتصر على البيت نفسه ولكنها تمتد إلى عشرات البيوت المجاورة التى يتساقط زجاج شبابيكها (على الأقل). وحدث ولا حرج عن البيوت الملاصقة. ففي حالة منزل آل عياد تصدع بيت المرحوم أحمد عياد شقيق مسعود وسعيد. وقرب مدارس بنات حى

الزيتون ولدى نسف ورشة الحدادة هناك، تهدم جدار البيت الملاصق للورشة فصارت غرفة النوم على الطابق الثاني ظاهرة للمارة. والواقع أن البيت كله متداع ولا تنقصه إلا هبة ريح لينهار !

يمر المرء بهذه المشاهد المعتادة وهو موزع بينها وبين مشاهد الجثامين في الشوارع وتحت الأنقاض وفي تلاجبات مستشفى الشفاء. وحينما آخر تتوزع المرء حوارات التاريخ: ما الذي أتى بهؤلاء الغاصبين الغرباء من كل مكان إلى عقر دارنا ؟ هل تحققت الآن قولة أحد مجرمي الحرب الذي قال منذ عشرين سنة : علينا أن نجعل الحدود تمر عند أبواب منازل الفلسطينيين، مشيرا إلى وضع يتيح لقوات الغزو أن تقتحم مناطقتنا كلما شاءت ؟ ثم ما العمل إزاء هذا كله ؟

كنت أجلس في عزاء أحد الشهداء، ودار الحديث عن مرجفين ينشرون الشائعات عن اجتياح هنا أو هناك ليثيروا الفزع، وتطرق الحديث عن مجمل الوضع، وعن مآسى الوضع، وإذا بشاب وسط صحبة من رفاقه ينطق قائلا : نحن الآن، حتى في ظل الموت أفضل حالا من الوقت الذي مر علينا طوال سبع سنوات من المفاوضات العقيمة. إننا نشعر على الأقل أن كبرياءنا محفوظة، ونحن نوقع الخسارة بالعدو كما يوقع بنا. وعموما لا يموت إنسان وهو ناقص عمرا.

ثم هدا قليلا واستذكر شيئا وعاد يقول : في اقتحام السنافور أطلقت دبابة على بيتنا ثلاث قذائف مدفعية. ودخلت الثلاث البيت. ولكن لم تنفجر أي منها. وسقط زجاج المنزل كله وبجواره أفراد أسرتنا فلم يصب واحد بجرح.

وهنا قال أحد الجالسين : يا سلام ! ما أعجبها صدفة !

فرد عليه الشاب المتكلم : ليست صدفة. وأضاف : في بيتنا سبعة أفراد يحفظون القرآن !!

لقطات الأسبوع :

* لماذا سقط العمل هذا السقوط ؟ المراقبون يتساءلون ويجتهدون في الإجابات. وكلها معقول. ولكنهم ينسون سببا جد بسيط، وهو مكوث العمل في الحكم مدة تقارب ثلاثين سنة شبع فيها فسادا وترهلا. وهذا السبب يبدو كافيا وحده لفقدان الحيوية والمناقبية الخلقية لدى الذين يمارسون الحكم والسلطة مدة مديدة. وما زلنا نتذكر قضايا الفساد التي انكشف عنها الستار وتورط فيها قياديون من الحزب وتحدثت عنها الصحف. وسيأتي الدور على الليكود في برهة أقصر حتما ! وعموما يبدو أن التعبئة التي شحنا بها الجماهير الإسرائيلية سترتد في وجوه صانعيها لأنها تعبئة تقود إلى طلب المزيد من كل شيء بما في ذلك المزيد من القتل.. مع صعوبة أن يستمر أي كيان في مجارة تطلبات لا تتوقف عن الازدياد.

[?] رحم الله الشاعر صلاح عبد الصبور. دعا الله في شعره أن يجعله (مثقفا) لا (ذرب اللسان). فهل تذوقتم الفرق ؟ إنه فرق مهم جدا ! ومثله الفرق بين المهرج الديماغوغي الأزعر وبين الوطني المتحمس.

[?] ما الذي يجدر بالأمريكيين والإسرائيليين أن لا يغمضوا عيونهم عنه ولا يلتفتوا إلى سواه بعد احتراق المكوك الفضائي ؟

في رأيي إنه الدرس التالي : لقد أودع العقل البشري والمال والعلم والإرادة في

صنع المكوك الأمريكي وتجربة المكوك الأمريكي خلاصة القوة والكفاءة والكمال

المنشود. وهي ليست المرة الأولى التي يرسل الأمريكيون للفضاء مكوكا أو قمرا

اصطناعيا. ومع ذلك يبقى هناك شيء لا يمكن التنبؤ به وهناك في الغيب خطر لا

يمكن الحيلولة دونه. هل يفهم الأمريكيون والإسرائيليون ذلك وهم يعدون العدة العدة للهجوم
على العراق ويحسبون أنهم قادرون على ضبط كل شيء بدءاً من
العمل وانتهاء بنتائجه !!؟

